تمظهر العلاقة التفاعلية بين الفضاء والأيديولوجية

في روايتي: "مدن الملح" و"البيت الأندلسي"

د. نورة بعيو
كلية الآداب واللغات – مخبر تحليل الخطاب
جامعة مولود معمري تيزي وزو(الجزائر)

Abstract :

This essay aims to reveal the instructional relationship between space and ideology, through the definition of the narrative space in its diversity, and its distinction from space in its empirical and philosophical concept, then to reveal the manner the novelist products the ideological sense … On the other hand, this essay reveals the role of ideology in reference to the production of space in camps, the major investment projects, such as building towers Western at the core of the disastered cities.

Key words : space, narrative space, ideology, myth, dream, identity, collective memory, history, disastered cities.

Résumé :

Le présent article s'intéresse à la relation interactionnelle entre espace et idéologie, à partir de la définition de l'espace narratif dans sa diversité, et sa distinction par rapport à l'espace dans son concept empirique et philosophique, ensuite dévoile la manière dont l'artiste en produit le sens idéologique … D'autre part, l'article révèle le rôle de l'idéologie quant à la production de l'espace dans les camps, les grands projets d'investissement tels la construction des tours occidentales au cœur des villes affligées.

Mots clés : espace, espace narratif, idéologie, mythe, rêve, identité, mémoire collective, histoire, villes affligées.

الملخّص :

يقف هذا المقال عند العلاقة بين الفضاء والإيديولوجية، انطلاقا من تحديد ماهية الفضاء الحكائيّ بأنواعه المختلفة، ومفارقته للفضاء بمفهومه التجريبيّ والفلسفيّ، ثمّ إبراز كيفية اشتغال المبدع عليه ليكون عنصرا منتجا للمعنى الإيديولوجي، كترسيخ الفكر الأسطوريّ، وعمق الانتماء ... مقابل هذا يبيّن المقال دور الإيديولوجيا في إنتاج المكان في المعسكرات، والمشاريع الاستثمارية الكبرى كبناء الأبراج الغربية وسط المدن الكارثة، بفعل رغبة التحوّل والتشويه والمسخ كما يخطّط له الأغنياء والإداريّون الانتهازيّون من خلال ممارسة شخوص الروايتين.

الكلمات المفتاحية : الفضاء الحكائيّ / المكان، الإيديولوجية، الأسطورة، الحلم، الهويّة، الذاكرة الجماعية، التاريخ، المدن الكارثية.

يرتكز مقالنا على ثلاث نقاط أساس هي:

*** ثنائية الفضاء**

- الفضاء النّصي والفضاء الجغرافي.
- الفضاء التخييلي/الفضاء الحكائي/المكان الرّوائي.
- الفضاءات الحكائية المغلقة والمفتوحة.

* **أهمية الفضاء الحكائي/المكان** والتي تجسدت من خلال العلاقة التفاعلية بين المكان والمعنى الإيديولوجي والمتجلية في عنصرين مهمين:

- الفضاء الحكائي منتجا للمعنى الإيديولوجي.
- المعنى الإيديولوجي منتجا للفضاء الحكائي.

وقبل التطرّق إلى إظهار استراتيجية الفضاء الحكائي/المكان في الخطاب الرّوائي وأهميته في الخطاب الروائي كتقنية وكموقف، ومن ثمّ تحليل العلاقة التفاعلية بين الفضاء الحكائي ومختلف المواقف الأيديولوجية المتباينة داخل النّص الرّوائي انطلاقا من مواقع الشخوص الحكائية وسلوكاتهم من جهة، وقناعاتهم المرتبطة بتوجهاتهم المستقبلية من جهة أخرى، لنفصل بين ذلك في مظاهر العنصرين الأساسيين في هذا المقال وهما:

- الفضاء الحكائي منتجا للمعنى الأيديولوجي وهذا الأخير منتجا للفضاء الحكائي/المكان.

وعليه فالحديث عن مصطلح الفضاء espace يستوجب بالضرورة التفكير في المكان الجغرافي l'espace le lieu / géographique والذي يوظف في مختلف الأعمال التخييلية السردية وغير السردية مستعيرا هويته من الإطار الواقعي أو يبقى على مستوى التخييل ومن ضمنه المتخيّل l'imaginaire الذي احتواه النّص الإبداعي بشكل ما، لذلك يجد الباحث نفسه أمام ثنائية الفضاء النصي والفضاء الجغرافي/المكاني. وقبل الولوج في الحديث عن الفضاء الجغرافي المتموقع في بنية الخطاب السردي للروايتين، يستوقفنا المفهوم المتداول للفضاء النصي l'espace textuel ويقصد به الحيّز الذي تشغله الكتابة المطبعية أو القصصية باعتبارها أحرفا طباعيه على مساحة الورق ضمن الأبعاد الثلاثة للكتابة والمتمظهرة في "طريقة تصميم الغلاف ووضع المطالع وتنظيم الفصول وتغييرات الكتابة المطبعية وتشكيل العناوين،..."[1].

كما حدّد "ميشال بتور" الفضاء بمقاييس ثلاثة، هي: طول السطر، وعلو الصفحة وسمك أو حجم الكتاب بالإضافة إلى بعض الأطر المتواجدة ضمن الصفحة ذاتها، كوضع إعلان في مربع صغير مثلا، وكذلك شكل الكتابة فتكون أفقية وعمودية، بالإضافة إلى مظاهر أخرى كوجود الهوامش والرسوم والأشكال، وتنطبق هذه الخصائص على مختلف الكتب[2].

فتصميم الغلاف مثلا لم يعد حيلة شكلية بقدر ما يدخل في تشكيل تضاريس النص، بل أحيانا يكون المؤشر الدال على الأبعاد الإيحائية للنص[3] وعلى الغلاف يلاحظ القارئ اسم المؤلف/المبدع الذي قد يكون في أعلى الصفحة أو في أسفلها، وحيثما تموقع يحمل دلالة خاصة وتأويلا بأبعاد مختلفة.

أمّا العنوان فيأتي كأحد الموجهات التي تستفز القارئ وتوسع فضوله أكثر، وقد أجمع العديد من اللّغويين القدامى[*] أن العنوان هو إظهار لخفي، ووسم للمادة المكتوبة، إنّه توسيم وإظهار، فالكتاب يخفي محتواه ولا يفصح عنه، ثم يأتي العنوان ليظهر أسراره، ويكشف العناصر الموسعة الخفية أو الظاهرة[4] وسبق "لجيرارد جينات" أن قنّن في مصطلح العنوان حيث عدّه من المؤشرات الأساس في استيعاب النصوص وفهم دلالاتها المختلفة، فهو وسيلة توجيه وإغراء تعمل على تحديد هوية النص وربطه بمحتواه[5].

وأخيرا يلعب العنوان أهمية كبرى في عمليات كثيرة كتجنيس الكتاب أو الترويج له وتداوله بين جمهور القراء[6]. حيث يخضع تأويله لمعطيات معينة كالمرجعية والمنظومة الثقافية التي تمدد فيها أبعاده ودلالاته في سياق ما مع مراعاة قصدية الكاتب المبدع.

ومن العناصر المرتبطة بالغلاف، نجد أيضا التشكيل الفني "أي تلك الرسومات الفنية التي يلجأ إليها الكاتب في الغلاف الأمامي لتكون أداة تعبيرية عن مشهد قصصي معني يبغي الكاتب توصيله للمتلقي"[7] هذا بالإضافة إلى التأطير أو الصفحة داخل الصفحة، ووظيفته شد انتباه القارئ إلى قضية محدّدة كما يقوم بدور التحفيز الواقعي في النص، كما يؤثر تأثيرا واضحا على الشكل العام للصفحة سواء : كان أفقيا أو عموديا[**]

أما عندما يرتبط بالجانب الكمي للنص أو محتوى النص وحجمه، فالهدف منه معرفة عدد صفحات النص، وعدد فصوله ثم شكلها كأن نرد على شكل مقولات أو أمثال أو جمل تطرح إشكاليات محددة مع بداية كل فصل، وقد يشار إلى بداية كل فصل برقم معين مثلا هذا أوّلا.

وثانيا يلاحظ قارئ الرواية أن المبدع يعمد إلى ترك بياضات هكذا على شكل "مساحات خالية داخل الرّواية سواء كانت بين السطور أو في نهاية فقرة أو فصل أو في هامش الصفحة أو بين الكلمات في الفقرة الواحدة أو في الجملة الواحدة شريطة أن يعبر الملفوظ عن المحذوف أو عن موضوع مسكوت عنه داخل الأسطر"[8].

*** التشكيل التيبوغرافي:**

وهو الشكل الذي يختاره المؤلف في كتابة نص الروائي، فهناك الشكل المائل أو البارز الذي تستخدم للتمييز بين نص وآخر أو بين العناوين الرّئيسة والفرعية في النص الروائي، بهدف إبرازها لما لها من دلالة إيحائية ورمزية وجمالية في النص، كأن يتمّ التمييز بين الحوار والسرد والمنولوج الداخلي وكل هذا التشكيل يسهم في فهم المعنى أكثر.

إن معنى إدراك هذه الخصوصية المحددة لكل مفهوم، هو الذي أوقع الكثير من الباحثين العرب في مزالق عديدة، إذ تظهر مقارباتهم أن هناك تباينا في التعامل مع الفضاء الروائي. "وقد أخفق بعضهم في ربط الأمكنة بالحوادث ومنظور الشخصيات أو وجهات نظرها، ومقابل ذلك نجح آخرون في أن جعلوا الأمكنة تؤثر في الحوادث وتتأثر بها، وتسهم في تطور الشخصيات التي تحل فيها أو تخرقها"[9]. وعليه سنتعامل مع مصطلح واحد يتمثل في المكان الذي تخيّله الروائي، وباعتباره جزء من الفضاء النصي بكل أبعاده، سينطبق عليه الفضاء الحكائي الذي يماثل المكان الواقعي في العالم المتخيل بحسب إستراتيجية المبدع وقصديته من جهة، وطبيعة الموضوع المتناول ضمن سياق تاريخي وثقافي معيّن من جهة أخرى.

من هنا يتضح أن الفضاء الحكائي/المكان الروائي هو المكان المتخيّل، أي المكان الذي صنعته اللّغة وفق متطلبات التخييل الروائي وحاجاته، فشعرية المكان وجماليته مرتبطة بقدرات اللّغة على التعبير عن العوالم المحسوسة والملموسة، يتأثر ويؤثر في مختلف المكوّنات الروائية لاسيما الوصف الذي يعدّ من أهم الوسائل التي تمهد لإنشاء علاقة متفاعلة جدا مع الشخصيات على صعيد السلوك والموقف وكذلك التوجّه الإيديولوجي[10].

هكذا أضحى الفضاء الحكائي إذن: عنصرا مهمّا في الخطاب الروائي المعاصر شكلا وتشكيلا، بالإضافة إلى ارتباطه الوثيق بهوية الإنسان وانتمائه الاجتماعي والحضاري، من هنا، يتأكّد لنا أن الفضاء الحكائي لم يعد عنصرا إضافيا، "يمكن الاستغناء عنه، بل هو كمكوّن حتمي له حضور كامل في الكتابة الروائية الجديدة كمحرك أساس للحدث الروائي وحركيته، وتفاعل الشخصيات فيما بينها"[11].

إن قارئ الروايات العربية المعاصرة يتساءل عن سر وقوع أحداث روائية ما في مكان دون آخر أو في أمكنة معيّنة تتكرّر على مدار الرّواية؟ ولماذا تنتقل الشخصيات الحكائية المختلفة عبر أمكنة متباينة، أو تثبت في مكان بعينه؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات مرتبطة بالوصف الذي يتناوب في الظهور مع المكونات الأخرى السرد والحوار. وتغيّر الوقائع والأحداث، "فالرواية وإن كان فضاؤها النصي محدّدا، فهي تنفتح دائما لخلق أمكنة أخرى جديدة"[12].

إن المتصفح للخطابات الروائية العربية بأسمائها المتداولة يلاحظ أنها كثيفة ومتنوعة مثل: المدينة، القرية، الطريق، الشارع، الساحة، الكوخ، الشقّة، المطبخ، الحديقة، الجبل، البحر، السجن، المكتب، المقهى، الجسر، البيت، الميناء، القصر، السوق، الصحراء،... الخ.

وانطلاقا من هذا التنوّع في الأمكنة وكثافتها، حاول الدرس النقدي المعاصر أن يصنّف الأمكنة إلى "أماكن طبيعية متحركة كالبحر وثابتة كالسجن والشارع مثلا[13] ويظهر من هذا التنوّع المكاني أنه يمكن تقسيم الأمكنة إلى أماكن مفتوحة ومغلقة، خاصة وعامة، قريبة وبعيدة، مسكونة ومهجورة، عالية ومنخفضة وأضاف "حسن بجراوى": "أماكن الإقامة الاختيارية كالبيوت الرّاقية والشعبية، أماكن الإقامة الجبرية كالسجن والمنفى،...إلخ"[14] وهناك من قسم المكان مركزا على أحد طرفي ثنائية منته/لا منته كالكواكب والنجوم، أو "منطلقا من فكرة تجريدية ما من خلال ثنائية أخرى عند الآخرين، وعندي مكان أمارس فيه سلطتي يتميّز بالحميمية أكثر، أما عند الآخرين فهنا تخضع الأنا لسلطة غريبة يجب أن أعترف بها، بالإضافة إلى ملكية المكان العام الذي تسيّره الدولة وتراقبه باستمرار."[15].

إن كل هذه الأمكنة لا ترتبط فقط بالشخصيات البطلة في الخطاب الروائي، حيث يمكن أن تسند البطولة كذلك المدينة أو الشارع أو الجسر أو الصحراء أو البحر أو الحديقة،... الخ.

"فهذا التنوّع والتعدّد في الأمكنة أو الفضاءات الحكائية جعلها تتّسم بأهمية بالغة لأنها الكيان الاجتماعي الذي يحوي خلاصة التفاعل بين الفرد والمجتمع"[16] ذلك أن الإنسان ومنذ القديم يسجل عليه أفكاره وثقافته تاركا آثارا لمشاعره ورغباته الجامحة ليقرأها جيله وأجيال أخرى في المستقبل، إن هذا المكان ارتبط بالإنسان ارتباطا حميما يدفعه للإبداع الخلاق، عندما يصير عنصرا استراتيجيا في الحدث الروائي وهذا ما تفعله الشخصية الحكائية، وبذلك لم يعد المكان في أي خطاب روائي مجرّد ديكور أو وسيلة شكلية وحسب، بل صرنا نقرأ ونلمس تلك العلاقة الأساس التي تحوّل المكان إلى إطار يتفاعل مع مختلف القناعات والأفكار والمعاني الإيديولوجية التي يعتقدها الفرد في نقطة مكانية معيّنة وضمن سياق حدثي محدد، وكل ذلك يسهم بشكل أو بآخر في جعل المكان بكل أنواعه المفتوحة والمغلقة: تنتج معاني إيديولوجية عديدة متباينة بحسب الموقع الذي تتواجد فيه الشخصية الحكائية، فالشخصية الراقية والمرفهة مثلا لا يمكن أن يجعلها الروائي يقطن في بيت شعبي بسيط وتعتقد بأفكار وذات توجّه ارستقراطي عالي المستوى أو نتصوّر شخصية أخرى محكوما عليها بالإعدام وهي تتجوّل في الشوارع وتتردّد على الأسواق والمقاهي، طليقة حرّة تتّخذ المواقف وتصدر الأحكام هكذا، وهذا ما يؤدي إلى مظهرين بارزين هما:

1-الفضاء الحكائي منتجا للمعنى الإيديولوجي:

تجسّد هذا المنحى خاصة في خماسية "مدن الملح" أو رواية"الصحراء" "لعبد الرحمن منيف" رواية التحوّلات المفاجئة التي عاشتها شبه الجزيرة العربية منذ مطالع القرن العشرين بمجيء الغرباء الأمريكان والانجليز باسم فرق التنقيب عن المال والبترول، وكان منطلقهم "وادي العيون" الواحة الخضراء التي أفزعتها الآلات والجرّافات وسلوكات الوافدين الغريبة عن الأهالي المتميّزين عنهم عقيدة وعادات ولغة، لذلك في كل يوم نراهم يهجرون أماكنهم إلى أماكن أخرى، فيتيهون وسط تلك الرّمال تحت الشمس المحرقة. وهكذا ومع مرور الوقت يتحوّل "وادي العيون" إلى خزان

للقطب الصناعي الذي يستقطب الأنظار، كما تنتقل حياة الناس من الخيمة البسيطة إلى البيت الزجاجي المكيّف، ليتوسّع الصراع بين الرأسمالي المرفه والإنسان الصحراوي البسيط الذي يتيه في كل الاتجاهات بينما أصحاب الأموال والأوامر يزدادون غنى، فلا يعرفون أين يتوقفون، ولا متى؟

إن "مدن الملح" تحكي التحوّلات الكبرى التي عاشتها الجزيرة العربية بعد اكتشاف البترول، والانعكاسات المختلفة سواء أكانت على صعيد البشر أو على صعيد المكان.

لقد حاولت "خماسية مدن الملح" أن تُظهر الدّور الذي لعبه النفط في إعادة رسم الخارطة الجيوسياسية للمنطقة من جهة، ومن جهة أخرى تتبعت بكثير من التفصيل التغيرات التي لحقت بالصحراء مبيّنة كيف كانت حياة البشر قبل ظهور الذهب الأسود وكيف صارت بعد تدفّقه من آلاف الآبار، جاءت الخماسية إذن: لتحمي الشخصية الصحراوية من التشويه والذاكرة من النسيان والهوية من الإلغاء.

فالمكان/الفضاء الحكائي هنا: صحراء شاسعة يعيش فيها البشر تائهين، إنّه البطل الحقيقي لتلك الحقبة الزّمنية التي تحاول الرواية إعادة تشكيل جزئياتها. لذلك لا يمكن أن نفصل حياة إحدى الشخصيات الحكائية عن المكان الذي تتواجد فيه، فهو أحد الأسباب التي تجعل هذا الفرد يعتقد بهذه الإيديولوجية أو تلك بسبب تعايشه اليومي مع هذا المكان، وهذا ما يفسّر كيف تتباين الإيديولوجيات ودلالتها بتباين الأمكنة داخل "مدن الملح".

إن دلالة المكان عند "عبد الرحمن منيف" عميقة عمق هذه الصحراء التي احتوت هذا الكم من الشخصيات والأحداث المتعاقبة. لذلك نلاحظ أن كل ذهنية تتعايش مع المكان الذي تتواجد فيه، هكذا يناسب "وادي العيون"/النقطة الأصل في صحراء "مدن الملح" شخصيات محدّدة على مدار كل الحكاية و"حران" و"موران" المكانان المستحدثان يناسبان شخصيات بقناعات مغايرة وذهنية مختلفة إلى حدّ التناقض مع الأولى، هذا بالإضافة إلى أماكن خارجية/أجنبية بعيدة في أوروبا وأمريكا.

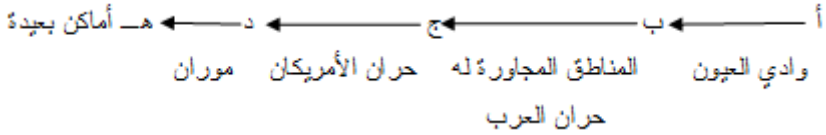

*** وادي العيون ومتعب الهذال/الرّجل الأسطورة وأصالة الانتماء:**

بديهيا أنه لا يمكن تصوّر فكرة ما أو اتجاه محدّد دون أن نستحضر الصوت أو الشخصية التي تحمل هذا أو تلك، لأن الفكرة لمن يحملها والاتجاه انعكاس لما يقتنع به، من هنا فإن المكان/الفضاء الحكائي يعبّر عن مجموع الإيديولوجيات التي يعتقدها من يسكن هذا المكان.

هكذا ارتبط اسم "متعب الهذال" "بوادي العيون" وهو شخصية تمثّل ذاكرة ماضي الوادي وحاضره. لقد كان كالجبل الصاعد أمام الأحداث والعواصف التي مرّت بها المنطقة، فشخصيته عمّرت طويلا، قدرها الناس وقدّسوها، لأنها كانت الحصن المنيع الذي يحتمي به الأهالي، بالرغم من بساطته وعقليته البدائية الأصلية، شديد الاعتقاد بمخلفات الماضي البعيد والقريب، رفض بكلّ جرأة وقوّة الحاضر الجديد الذي لم يشارك في صنعه، لذلك يقرّر الرحيل عندما شرع الغرباء في قطع أوّل شجرة حين سألوا عن "متعب الهذال" فقد وجدوا من قال: « إنّه رجل، بدت الكلمة غريبة، غير مألوفة بل ومعادية أيضا، "متعب الهذال" يرحل؟ كيف يرحل ويترك الوادي،... وإلى أين يمكن أن يرحل؟ قال أحد الرّجال: "متعب" لا يترك الوادي، "متعب" يموت ولا يرحل.

- رحل منذ زمن طويل حين قطعوا أوّل شجرة.
- "متعب لا يرحل،...أراهن»[17].

وحلّ "الهذال" موضوعيا ولكن لم يغادر للحظة عقول الأهالي وقلوبهم، لأنّه الحامل الحقيقي لقيمهم وأصالتهم التي بدأت تضيع منهم شيئا فشيئا منذ اقتلاع أوّل شجرة. إذ عنى لهم هذا، تجريد الوادي من كل ما يربطه بالماضي البعيد والقريب، فهي الصدمة التي مسّت وجودهم الاجتماعي والتاريخي في العمق.

رحل "متعب الهذال" بدافع التعالي والحرية على مادية الحياة المبتذلة من أجل المحافظة على قيمه الأصلية ونقائها فقد غرس فيه الوادي صفة الكبرياء، وجرأة الرفض، وعمق الانتماء وعشقه للحرية "بعد خروج الشياطين، ففي لمح البصر توجهوا إلى الآلات بتلك العصبية وذلك الاندفاع... نهض على مهله، تنشق هواء الوادي برئتيه وجسده كله، نظر إلى كل ما حوله، وكأنه يودّع الأماكن والأشياء، وما كادت تلك الآلات المجنونة تبدأ الحركة حتى صرخ صرخة حادة موجعة.

– حسافا... حسافا... يا وادي العيون"[18].

ظل رحيل "الهذال" مؤقتا، يظهر ويختفي في أشكال مختلفة، هدفه تفقّد حالة الوادي بوصفه جزءا منه، أو هو نفسه بخصوبته أو عمقه، بماضيه المتأصل وحاضره المتناقض والمخيف، "كان طيفه يملأ الفلاة كلها"[19].

إن الأثر العميق الذي تركه "وادي العيون" في نفسية "الهذال" وعقله، جعلت صورته قائمة في أذهان الأهالي وذواتهم، تفزع الأمريكان وأتباعهم من حين إلى آخر، لأن طيفه يسيطر على الوادي كلّه، فاتسعت أسطورة وجوده وقداسته، من خلال انتشار الخوارق والخرافات وكلها مرتبطة بشخص "الهذال" وظلّه.

فقد فرضت طبيعة المكان الصحراوية على الناس أن يعتقدوا بمثل هذه الخرافات والأوهام وتتسع دائرة تأويل الفرد...لتتحوّل بعد ذلك إلى قاعدة عامة تشكل جزءا من مخيّلة الإنسان البدوي إلى درجة أن أهالي "وادي العيون" أسطروا شخصية "الهذال" عندما راح يواجه الوضع الجديد بمفرده كبطل الملاحم القديمة، وسيلته الاختفاء والظهور، الإقبال والتراجع، يتألّم لحالة الوادي، يمعن النظر ولا يقول شيئا "لكز ناقته فاهتزت اهتزازا قويا وهي تنهض، وبدا "متعب الهذال"، وهو يرتفع مثل خيمة كبيرة، ثم بدا غيمة"، أما حين بدأ حركته السريعة فقد أصبح مثل "طير أبيض" يبتعد حتى تلاشى...واختفى"[20].

هكذا أدى المكان الصحراوي بذهنية ناسه الماضوية ومعتقداتهم بالخوارق والأساطير وبدوية سلوكه ونمط تفكيره المحدود إلى إنتاج مواقف وردود مختلفة ومتناقضة بين الناس في وادي العيون، فغموض الحياة الصحراوية وقساوتها ومحدودية تفكير الفرد فيها، ولدت الاعتقاد بهذه الأوهام والترهات إلى درجة الأسطرة، بل أكثر من ذلك الإيمان بالغيبيات استنادا لما كانت تحكيه منجمات الوادي كالمنجمة المثقال عن مستقبل المكان والناس "وبعد سنين يتذكر الكثيرون ما قالته "نجمة المثقال" بدقة: من وادي الجناح، حتى الضالع ومن السارحة حتى المطلق، النّار تلهم النار، والصغير يموت قبل الكبير، أو لها عدو وآخرها مدّ، الولد لا يعرف أباه والأخ لا يعرف أخوه...أو لها سوط وآخرها لوط، أولها النبي المختار وآخرها الدجال...وبآخر ذلك الزمان لا بد أن الناس تقوم والظلم ما يدوم وتحصل سوالف يحكيها الناس لولد الولد"[21].

لقد صدقت العقلية البدوية كلام "نجمة المثقال" حيث انتشر بين الأهالي وكل الرافضين لهؤلاء الغرباء على الوادي، وخاصة أن بعض ما نشأت به بدأ يسري في واقع"حران" بعد فترة زمنية معينة.

***المكان وإنسانية البسطاء:**

يلاحظ قارئ نص "مدن الملح" أن ثمة مفارقة واضحة بين مجموع الأهالي الأصليين بأفكارهم وسلوكاتهم ومعتقداتهم السارية في دمائهم وبساطتهم وإنسانيتهم الواسعة، سعة تلك الصحراء ويمكن أن نمثل لهذا النموذج بشخصية حكيم " وادي العيون" وحران بعد دلك، إنه مفضي الجدعان الذي عرفه الناس وهو يمارس نشاطه اليومي بروح إنسانية عالية، مؤديا دوره بكل تلقائية، يساعد الجميع ولا ينتظر مقابلا، كان كريما ومتواضعا، نبيلا ومحبوبا لدى الجميع، كان لا ينافق لا بالمال ولا بالذهب، لقد كان مفضي الجدعان ممثل كل بسطاء تلك الصحراء ومظلوميها، كان يتمتع بقدرة عجيبة على شفاء المرضى لم

ينافس أحدا، كان قويا يتحدى قساوة الطبيعة وأنانية الانتهازيين في حران قال يوما مناديا أهل "حـــران": « يـــا أهـــل حـــران، الحاضر يبلغ الغايب، ابن الجدعان مثل ما كان، لا يغدر ولا يخون، وما له بهذه الدنيا شيء، ولا يخاف إلا رب العـــالمين، يـــا أهل حران الفلوس خربت قبلكم كثيرين ... الواحد يأكل أبوه، ويقتل أمه وأخاه، لكن لا شيء يدوم ولو دامت لغيرهم ما وصلت إليهم »[22].

من كلام "مفضي الجدعان" تتضح لنا الأبعاد الإنسانية في أعماق هذا البدوي البسيط، الذي لم يبال بكل ماديات الحيـــاة، لأن لا شيء يدوم إلى الأبد، هذه هي القناعات التي كانت تقود مفضي الجدعان في حياته وتعامله مع الناس، إلى أن تـــدهورت صحته وتعب تعبا شديدا، فيظهر الدكتور " صبحي المحملجي" حكيم حران/موران الذي سيختلف عنه في المبدأ والهـــدف، لأن الأصل الإيديولوجي بين الإثنين مختلف كلية، فالمفارقة بين إنسانية مفضي ولا إنسانية المحملجي الطبيب الذي قدم من بيـــروت واضحة.

***المكان/ تعصب الرجل وتغييب صوت المرأة:**

ترتبط وضعية المرأة بالبيئة التي نشأت فيها وتنتمي إليها، لذلك فإن خصوصيات المرأة اليدوية الصـــحراوية تفترق عن تلك التي تتميز بها نظيرتها الحضرية الأوروبية أو الأسيوية مثلا.

لقد شكلت الحياة البدوية والشرقية في صحراء الجزيرة العربية نسبة عالية في نص" مدن الملح"، إلا أن حظهـــا كـــان قليلا جدا إذا ما قورن بحظ الرجال، فقد انحصر حضورهن في بعض المواقع، كما ارتبط وجودهن ببعض المهام دون أخرى، والسبب في ذلك ليس الرجل أي الأخ أو الزوج أو الأب، وإنما القناعات والقيم والتقاليد التي تسري في دم المجتمـــع الشـــرقي/ الصحراوي منذ الماضي البعيد، فقد ترسخت هذه السلبيات في ذهنية المجتمع الذي في كل يوم يرغب بل يبحث بكـــل الوســـائل لإثبات ذكوريته المرتبطة بمرجعيات عميقة تقر بدونية المرأة وتعترف بقصورها في العديد من المواقف والظروف.

لقد تواجدت المرأة في هذا المكان المحدود لتخدم الرجل كخادمة طائعة وصبورة داخل الخيمة أو في القصور بعـــد ذلك، أو مقاومة، ضائعة تبحث عن مخرج لأزماتها الكثيرة من أجل أن تؤمن عيشها، فقد اقتنع الرجل بقصورها فـــالمجتمع بشكله هو بمفرده يتموقع في درجة أعلى، كما يمنح لنفسه القوة والكمال، وبهذا التعصب الأعمى يغيب المجتمع الذكوري في هذا المكان الصحراوي وجود المرأة ودورها المكمل للحياة الطبيعية في مجتمع إنساني سليم وحقيقي.

إن هذه المعطيات ومختلف المواصفات التي اتسمت بها عقلية هذا المجتمع البدوي الذكوري، صار ينظر إلى المرأة على أنها عنصر قاصر التفكير، مزاجي، ضعيف مشدود إلى عالم الغيبيات والتنجيم، تعيش في عوالم السلف الخرافية، لذلك هي تخرج ولا تعرف أين ستتوقف كما كان شأن "أم حسنى"[23]، فهي لا تخطط لحياتها ولا تحدد هدفا لها فـــي المســـتقبل، فهي المرأة الدجالة التي تستدعى إلى قصور السلطان فتعرف كل أسراره، لما تقدمه من عقاقير ولوازم تحميه مـــن العـــين والحسد والسحرة، مرة قرأت الفنجان أمام الشيخة "أم زهوة" فقالت: « وفي الفنجان يا شيخة، رسوم وعلـــوم، فيـــه ســـلام وكلام، وفيه اللي صار وجرى، وفيه اللي ما يندرى، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة، واللي ما ينحكي اليوم، ينحكى ثـــاني يوم...» [24].

هكذا ظلت المرأة البدوية مشدودة إلى عوالم التنجيم بعيدة عن الواقع المعيش، وإذا خرجت عن هذه الفضاءات فإنها تقع ضحية/فريسة في يد الرجل كوسيلة للمتعة لا غير، فكان همها الخوف من أن يتزوج بعلهـــا القـــوي نســـاء أخريات يتهدد حياتها باستمرار[25] كما فعل السلطان " خريبط" وتابعه ابنه "خزعل" بعد ذلك[26].

إن طبيعة المجتمع الصحراوي وتحكم الذهنية البدوية في علاقة الرجل بالمرأة غيبتها بشـــكل واضـــح، بـــل حصرت مهامها في العمل المنزلي إذا لم تكن ثمة خادمة، وإلا صارت عاطلة معزولة في دار الحريم، إذا كان الأمر

يتعلق بنساء القصور المرفهة، أما إذا كانت المرأة عادية من العوام، فإن نظرة الرجل إليها لن تخرج عن إطار أنها جسد يعمل ويلبس، وقوام يجذب ورحم ينجب ولسان يشكو ويطالب... [27].

وهكذا سواء كلن الرجل بسيطا أو ثريا، فالنظرة المحكومة بالتعصب وقناعته العميقة بأنها العنصر الثاني والضعيف في المجتمع هي نفسها، لأن النتيجة في الأخير تغييب المرأة وجودا وفكرا وفاعلية إنسانية بالدرجة الأولى.

***السوق أصالة الانتماء وعمق الذاكرة الجماعية:**

لقد كان للسوق كفضاء حكائي مفتوح على مختلف العوالم والاتجاهات الأثر البالغ على تأكيد قوة انتماء الإنسان البدوي رسوخ قيم الأخوة والتعاون الاجتماعي بين الناس في علاقاتهم اليومية، الأمر الذي جعل المكان السوق في نص " مدن الملح" قيمة خاصة في علاقة الناس بعضهم ببعض، حيث كان المركز الذي يتوجه إليه الناس في المسجد وزوار المقبرة ومختلف القوافل في ذهابها وإيابها «... ففي أقصى الشرق...حيث الطريق الذي تسلكه القوافل لبلوغ "موران" يقع "سوق الحلال" وعلى أطرافه بضع دكاكين... وعلى الطرف الغربي منه يقع المسجد.. أما في الجهة المقابلة من السوق فكانت مقبرة موران...» [28].

وبهذا الموقع يمثل "سوق الحلال" لأهل موران ذاكرتها ومركز قوتها الشعبية على الصعيد التجاري ومركزا يقصده المصلون بسبب قربه من المسجد، وهو كذلك مركز للذاكرة الجماعية للمجتمع الصحراوي ببعديه التاريخي واللاهوتي، حيث يندر أن يمر منه الناس ولا يتذكرون أهاليهم وأجدادهم الموتى في المقبرة، لحظات فيها كثيرا من العمق والكثافة الشعورية، تذكر بأن التواصل بين الأحياء والأموات لا يزال مستمرا، لأن الفروع لا تنفصل عن جذورها.

كما تمثل السوق ذاكرة جماعية للأطفال الذين لم يعرفوا بعد بيوتهم وأحياءهم مكانا آخر غير "سوق الحلال" عاشوا لحظات مميزة وهم يختارون أضحيات العيد، وهم يقومون بانتقاء ملابس جديدة، أما الكبار فيتذكرون أولى المشاعر وهم يتفقون على المرأة التي تكون زوجة أحد الأبناء وإجراءات ذلك، في السوق كل يوم يختلف عن اليوم الذي يليه، الناس يتناقلون الأخبار الجديدة بشكل مستمر، الغائبون يعودون، والحاضرون بالأمس ذاهبون اليوم[29] أسرار الناس تتكشف لهذا وذاك، خفايا القصور تخرج إلى عامة الناس بطريقة ما.

هكذا كان السوق يملأ حياة الناس البسطاء والشعبيين بهجة وحميمية فلا يمكن لأحد أن يفكر في اختفاء السوق؟ فهي جزء من حياتهم الاجتماعية، خاصة بالنسبة لشخص" كشمران الغنيبي" الرجل المجرب والعارف يستشيره الناس في القضايا الكبيرة والخطيرة حيث تتعقد الأمور وتدب الخلافات في السوق.

لقد كان "شمران الغنيبي" " القاضي" الذي يفصل في كل المواقف المعقدة، في مجال تجارة المواشي،القضايا المرتبطة بالأنساب والقرابات والجميع يقصده للمعرفة والاستفسار والمشورة[30].

كان سوق "الحلال" فضاء جمع كل العلاقات السائدة بين الناس الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وحتى الشخصية والسياسية، فقد كان مركزا للتلاحم العميق بين الأفراد الذين يعيشون جماعيا تلك اللحظات المليئة بمشاعر البهجة والسكينة والأمان، لذلك عندما يتم نقل السوق إلى منطقة أخرى يضيع الناس ويصابون بالجنون لأن جزءا من ذاكرتهم اختفى إلى الأبد.

وربما على عكس الفضاء الصحراوي الذي غلب على رواية " مدن الملح"، فإن رواية البيت الأندلسي "لواسيني الأعرج" عجت بالفضاءات المتنوعة المغلقة والمفتوحة على مختلف مظاهر الطبيعة الأندلسية، والتي ألهمت الشعراء والكتاب كما المعماريين الذين تركوا محطات لا يزال أثرها شاهدا على عظمتهم إلى اليوم في قرطبة و" غرناطة" ومدن اسبانيا الأخرى بكنائسها ومساجدها، قصورها وشوارعها المتميزة، كل أسهم في إنتاج معان ودلالات إيديولوجية كثيرة، لها أبعاد تاريخية وحضارية ودينية واضحة المعالم في الماضي، وأبعاد سياسية وقانونية، ثقافية تتفاعل مع راهن المجتمع

الجزائري الباحث عن حصانة بهويته الخاصة وسط هذا الركام المعلوماتي الذي أفرزته ثقافة الوسائط والأرقام في كل مجالات الحياة.

ولعل من مظاهر المعاني الإيديولوجية التي يوحي بها العديد من الفضاءات الحكائية التي وظفت بشكل مكثف وواضح في هذه الرواية نجد:

***الكنائس فضاء لاستعباد الناس والتعدي على حرمات أجسادهم:**

الكنائس فضاء للعبادة وتقديس الخالق وتطهير النفس من الذنوب والخبائث، ولكنها في العقد الأخير من القرن السادس عشر الميلادي (1570)، ابتعدت عن هذه الغايات فراحت تؤدي وظائف أخرى لا إنسانية، حيث ارتبط اسمها في اسبانيا " بمحاكم التفتيش" في غرناطة الجريحة حيث يلقي القبض على أول الموريسكيين المهجرين منها إلى منافي وهران غرب الجزائر(المحروسة)، وكان اسمه " غاليليو ألروخو" بعد موقعة "جبل البشرات" يقول السارد« جاؤوا بي من أتون الحرب، كنت بين الموت والحياة، ولم أكن أملك أية قوة تسمح لي بالوقوف، وظللت منتصبا الزمن الذي شاءوه، لم يكن لدي شعور بحواسي ولا حتى بوزني جروني نحو كاتدرائية قديمة... شرعنا في النزول... وكأننا ننزل نحو أعماق جهنم... دخلوا بي عميقا نحو غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت مسافات كبيرة تحت الأرض... رأيت فيها ما يستفز خوفي وصبري... كان السجناء يئنون في الزوايا من الطابق الأرضي للكنيسة رجالا ونساءا... الكل كانوا عرايا... وأجسادهم سوداء من كثرة الدم الذي نشف عليها...» [31].

إن الدلالات أو المعاني الإيديولوجية المتضمنة في الملفوظ، توضح الوسائل التي كانت تستخدمها محاكم التفتيش التابعة للكنيسة الاسبانية في تلك المرحلة من التاريخ، وذلك لتفرض بالقوة على الناس قانون التنصير حتى وإن تتطلب ذلك استعمال الوسائل اللاإنسانية لتعذيب الرجال كما النساء بأقصى درجة من العنف يتساقط اللحم عن العظم[32]، كل هذا من أجل أن يرتد الناس وخاصة المسلمون عن دينهم، كما فعلوا مع " غاليليو" الموريسكي الذي واجه أبشع سلوكات الظلم المعنوي والجسدي ولاسيما عندما يتعلق الأمر بأقرب المقربين كالأخ والأخت في إحدى جلسات التحقيق مع غاليليو أجاب القضاة المتخصصين من دون أية مقاومة: « أنا مرتد، مسيحي وأقوم بكل طقوسي، لم أحمل السلاح يوما ضد الملوك الكاثوليك، ولكني حملته ضد اغتصاب نسائنا وضد الظلم الذي مورس علينا، كنت أدافع عن أختي التي اغتصبت في حي البيازين أمام الجميع... كنت أدافع عن أختي التي اختطفها أحد العساكر وساقها إلى القلعة ليغتصبها ويرميها بالقرب من الحي اليهودي عارية... قلت لهم أيضا... ماذا كنتم ستفعلون لو كنتم في مكاني؟ كيف كنتم ستتصرفون أمام اغتصاب ابنتكم، أختكم أو أمكم؟»[33].

لقد رد" غاليليو" على تهمة محاكم التفتيش مقنعا إياهم أنه كان يمارس الطقوس المسيحية أكثر منهم، مع أن ذلك لم يكن صحيحا، بل كان حايلا منه حتى ينجو من موت مؤكد بعد تعذيب طويل وشديد.

نفهم من ردة فعل " غاليليو" أنه كان يتمتع بعمق إنساني وأخلاقي كبير جدا، حيث كان يرغب في تعميم القيم السامية في وسط يختلط فيه المسلم بالمسيحي واليهودي، فيتحقق ذلك التعايش بين الأديان على أرض أوروبية مركزها " غرناطة" إلا أن روح الاستعباد وتجاوز كل الأبعاد الإنسانية أدت إلى إلغاء كلي لقداسة الجسد البشري، فهذه أفعال وسلوكات كانت هي السيدة على أرض حاول المسلمون أن يرسخوا حضارتهم عليها بكل ما تتضمنه من قيم فاضلة، ومن ثم كان يجدر بالكنيسة الكاثوليكية أن تحرص على نشر تعاليم الدين المسيحي الذي لو وظف بما تنص عليه تعالم المسيحية لما ذاق موريسكيو اسبانيا مختلف أشكال التسلط والتنكيل والبطش، ولما هجروا إجبارا إلى خارج الأراضي الاسبانية/الأندلسية فكل هذه المعاني أفادنا بها ما كانت تخفيه عن الأنظار الدهاليز والغرف العميقة والمظلمة في سجن هذه الكنيسة أو ذاك الدير.

***فضاء الإدراة وسيلة لتعسف القانون وتشويه للتاريخ:**

أظهر نص" البيت الأندلسي كذلك أن من أبرز السلطات التي كانت تضغط على العم" باسطا" خادم البيت الأندلسي و"سليم" حفيده من أجل ترك البيت والتخلي عنه نجد إدارة البلدية والدائرة وكذا بعض الجهات المالكة لـرؤوس الأمـوال الضخمة والعقارات اللامحدودة قال العم باسطا:« منذ أن بدأت فكرة بيع البيت الأندلسي وما يحيط به من بقايـا الحديقـة القديمة وبعض البنايات التي باعها أصحابها بلا تردد إلى المقاولة بتدخل البلدية لضمان حقوقهم كاملة، بدأت منذ مدة غير قصيرة عمليات الهدم وعزل البيت نهائيا حتى أصبح كأنه جزيرة ضائعة... تفضل يا عم مراد سيلتحقون بك في القاعـة البيضوية... ربما استطاعت إقناعهم...كانت القاعة مربعة وبيضاء مثل دار المباحث أو مستشفى... دخل أعضاء اللجنة متلاحقين، بدأت أعدهم لم أعرف فيهم إلا رئيس البلدية ومسؤول الدائرة الأمنية لمنطقتنا الذي زرته مرتين...» [34].

فعلا بهذه الطريقة كانت السلطة الرسمية المعول عليها المحافظة على تاريخ الأمة واحترام القانون لتنظيم حياة الفرد وضمان أملاكهم، تضغط في كل مرة على العم باسطا ومن أيده في حماية البيت الأندلسي كأثر معماري لتاريخ الموريسكيين في المحروسة/ الجزائر، وذلك باستعمال تعسفي للقوانين المنظمة لمثل هذه الملكيات ذات الأبعاد المختلفة حضارية وتاريخية، ارتبطت بتواجد أول رجل أندلسي وطأت قدمه أرض الجزائر، لذلك يتوجب حمايته من التشـويه والضياع، لأنه صار يمثل عنصرا من عناصر هوية الإنسان على أرض المحروسة.

***الفضاء الحكائي توريث للتاريخ وتسامح بين الأديان:**

أفادنا المكان في نص البيت الأندلسي بمعنى/موقف ايجابي عميق جدا تجاه التاريخ والحضارات التي تعاقبـت على المحروسة/ وخاصة " البيت الأندلسي فقد فرض هذا الأخير على الجيل الحاضر من الناشئين الشـباب شـعورا واضحا بروح المسؤولية تجاه الماضي البعيد، فوعوا خطورة التجاهل العمدي أو التحريف المقصود لكل ما له علاقة بخصوصية انتمائنا وهويتنا، الأمر الذي جعل إحدى المعلمات "صونيا" تصحب مجموعة من تلاميذ مدرسة ابتدائيـة، برفقة صديقتها" نصيرة" في زيارة إلى هذا المعلم الأثري "البيت الأندلسي" وحديقته الغناء لينتقل التاريخ من جيل إلى جيل عبر جهود مجموعة من المثقفين الأوفياء لهذا الوطن.

لقد سمح العم "مراد باسطا" للمعلمين بموافقة وزير التربية، بأن تدخلا البيت الأندلسي وحديقته، كانت " نصيرة" معلمة متخصصة في مادة التاريخ « تقدم للتلاميذ معلومات عن البيوت الموجودة في العاصمة، عن هندستها ومـواد بنائها وعن عددها التقريبي... »[35].

لقد أعجب "العم مراد" برد فعل التلاميذ وفضولهم لمعرفة المزيد من المعلومات والشروحات عن حقيقة هـذا البيت كاسمه ومالكه الأصلي وسكانه الأوائل حيث حملات عديدة تواكبت على هذه الـدار التـي يتجـاوز عمرهـا الأربعمائة سنة من الرومان والمسلمين الأندلسيين، الأتراك والفرنسيين ثم توافد عليها ناس آخرون بعد الاستقلال أي نحن، فعلقت إحدى التلميذات على كلام "صونيا" قائلة:

« ولكننا لسنا مستعمرين مثل الرومان والأتراك والفرنسيين فترد صونيا عليها:

- لا نحن أبناء كل الحملات التي مضت، لم نأت من فراغ فينا من كل هؤلاء الذين سبقونا إلى هـذه الأرض، ولـن نكون في النهاية إلا هذا "النحن" المختلط... يضيف العم مراد... هذه الأرض مرت عبرها أقوام كثيرة وديانـات أيضا، كل قوم يدينون بدينهم الخاص، اليهود والمسيحيين... والآن أصبحت هذه الأرض للمسلمين، ولكن في وقت مضى، وقع لليهود ما وقع لنا أيضا، الأسبان المتطرفون كانوا يحرقونهم كذلك، ولهذا هربوا إلـى هـذه الأرض لأنهم وجدوا بعض السلام فيها، وسكنوها مثلنا جميعا، واشتغلوا في الحرف اليدوية في القصبة، باب عزون، باب جديد... » [36].

لقد عبرت كل من المعلمتين ومعهما" العم مراد" عن قناعتين مهمتين هما: أن التاريخ يحفظ وينقل من جيل إلى آخر بكل أمانة ووعي، كما أنه لكي يعيش جميع الناس في سلام ووئام يتحتم عليهم نبذ كل أشكال التطرف الديني، وقد تحقق هذا المسعى الإنساني في أجواء البيت الأندلسي، الذي احتوى كل الأقوام بأديانهم وحضارتهم عبر مختلف المراحل التاريخية منذ أن شيده على أرض القصبة المحروسة الجد الأول غاليليو ألروخو/ السيد أحمد بن خليل الذي أصر على أن يحفظ اللاحق نداء السابق فهو الذي كان يردد وصيته: حافظوا على البيت، فهو من لحمي ودمي، ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدما فيه أو عبيدا »[37].

2-المعنى الإيديولوجي منتجا للمكان:

ومقابل العنصر الأساس السابق شكلت العديد من الأفكار والأحلام وكذلك الطموحات الجامحة عند بعض الناس في نصي" مدن الملح" و"البيت الأندلسي" محطات إستراتيجية مهمة وخطيرة، حيث كانت كأرضية ذهنية انطلق منها هؤلاء كل من موقع معين ليجسدها واقعيا، ولأن هذه الأفكار والطموحات محملة بمعاني إيديولوجية مختلفة، فقد أسهمت في التخطيط لإنشاء فضاءات جوارية أو استبدالية لتلك التي كانت موجودة من قبل لتحقيق طموحاتهم المستقبلية، وإن أدى ذلك إلى التضحية بقيم وأصالة خصوصية الفضاءات الأصلية أو تغريب المكان، ذلك أن سلطة بعض الأفكار والمواقف الإيديولوجية وحتميتها فرضت ذلك.

***انتشار اليد العاملة وكثافة المعسكرات:**

لقد أدت الحياة الجديدة في صحراء وادي العيون في نص" مدن الملح" مثلا إلى ظهور مجموعة من الفضاءات المغلقة/المفتوحة في وسط ذلك المد الصحراوي الشاسع، فقد توافد مع فرق التنقيب البترولية الأمريكية والانجليزية التي حطت بآلاتها ومعداتها لتبحث عن الذهب الأسود عدد كبير من العمال ليتكاثروا بشكل لافت للانتباه بعد ذلك، إذ لزم على الإدارة المسيرة لعمليات التنقيب أن توفر لهذه اليد العاملة الإيواء والإطعام، لأن الخيمة لم تعد تتناسب والذهنية الجديدة التي صارت تسير الحاكم والمحكوم في" حران العرب ثم حران الأمريكان»[38].

وهكذا تكثفت عملية بناء المعسكرات بطريقة سريعة جدا، ولا سيما بعد أن ازداد فضول المنقبين لتوسيع دائرة التجارة البترولية، فقد احتلت المعسكرات حيزا معتبرا في الجزء الأول/التيه من نص "مدن الملح"، وجاءت كنتيجة لسيطرة فكرة التجارة البترولية من جهة وتزايد اليد العاملة من جهة أخرى، إذ كان العمال وأغلبهم من المحتاجين البسطاء الذين أحسوا بأنهم داخل سجن يقيدهم عندما يتحكم في رزقهم اليومي، فكان المعسكر فضاء يهرب إليه العمال من الرياح والرمال التي تجبرهم على التنقل من مكان إلى آخر، ومن هنا اختاروا البقاء بين أسوار المعسكر على أن يتيهوا بين الكثبان الرملية وسط الصحراء.

وعليه أدت فكرة استثمار البترول في صحراء شبه الجزيرة العربية إلى استحضار الهياكل والمعدات اللازمة ولكن لكي تستغل هذه الأخيرة كان لا بد من التفكير في جلب يد عاملة نشيطة من داخل الصحراء أو من وراء البحر، فالمعسكر مكان لم يكن موجودا من قبل ولم يكن للإنسان العربي البدوي ليسمع به، لو لم تكن قناعة هؤلاء الغرباء/الأمريكان وغيرهم بأن هذه الصحراء هي فضاء مهم وغامض جدا لا بد من اكتشافه والاستثمار فيه وفق التوجه الليبرالي الرأسمالي الأمريكي.

***المشاريع الاستثمارية/تحويل للمكان وإلغائه:**

أ-أصحاب النفوذ والبرجوازيون الصغار ينشئون فضاءات جديدة:

وقد تجلى هذا الطرف بكل أفكاره ومعتقداته الإيديولوجية التي ارتبطت بالموقع الذي صنفوا فيه، والمركز الذي كانوا يصدرون منه الأوامر، وخاصة نص " مدن الملح" حيث نقرأ قائمة طويلة لأصحاب النفوذ الذين حولوا تلك الواحة الخضراء بشكل سريع ومفاجئ إلى مدن كبرى تعج بالشركات المتعددة الجنسيات بتسيير عقل غربي/أمريكي واضح وسأمثل لواحد من هذه القائمة بالدكتور" صبحي المحملجي" الذي كان يؤمن بمبادئ لا يحيد عنها في علاقاته بالأفراد داخل المجتمع، وهي مبادئ تدخل ضمن تصوره للحياة وقناعاته الشخصية وطموحه المستقل الذي انطلق من "نص التيه"[39] ليتطور مساره عبر تصاعد الأحداث وتزايد عدد الشخوص الحكائية في الأجزاء اللاحقة من الرواية فقد جاء هذا الرجل إلى وادي العيون/ حران لسببين الأول يتعلق برغبته في الحصول على ملكية أرض وعدة بساتين في أماكن مختلفة بأرض الجزيرة، والثاني هو فضوله وولعه الشديدان باكتشاف الأماكن الجديدة متأثرا بأدب الرحلة[40]، عملته في ذلك جنون المال والعظمة ومكان يخلده به التاريخ، وقد اتخذ من" مطبع شخانيرو" الطرف الإعلامي الذي يشهر بعبقريته الدكتور العلمية والمهنية بين الأهالي والوافدين على "حران"[41] كما يعول على أسماء أخرى في مجال النشاط المالي والتجاري ولن يمر وقت طويل حتى يخطط الدكتور" المحملجي" لبناء مشروعه المستقبلي في" حران" من خلال نظريته المضحكة" نظرية المربع" المتكونة من أربعة مراكز هي " العقل-القلب-المعدة- ثم الجنس[42] بعد أن يتزوج " خزعل"/ السلطان ابنته " سلمى"[43] فزاده ثروة الأب/ الحكيم صبحي" المحملجي" يوما بعد آخر، فيشتري أكبر عدد من العقارات فينجر وراء وهم السلطة المادية وجنون الثروة والمجد العائلي، لذلك وبمساعدة السلطان يشرع الحكيم في التخطيط لانجاز عدة مشاريع كبرى في مرحلة زمنية معينة، فقد انشغل بها لدرجة أنه نسي منافسه وعلى رأسهم "مقضي الجدعان" حكيم الوادي/والأهالي، الذي كان " المحملجي يسخر منه باستمرار ويحرض الناس ضده وضد طرائق علاجه، لكن مع ذلك نسي أمره، لأنه يرغب في تحقيق حلم عمره ويقوم بشراء مساحات شاسعة على طريق معسكر الأمريكان ناحية الشمال، وبعد فترة يشاهد الناس عددا من الأبنية الغريبة قيل إنها للشركة، لكن" المحملجي" كان يتردد كثيرا على المكان ويعطي بعض التوجيهات للعمال وخاصة بعد أن وضع لافتة كتب عليها«مستشفى الشفاء» سافر خارج حران، وعاد ومعه مجموعة من الأشخاص الأقارب فتفتح «صيدلية الشفاء» ومع كل هذه المباني والمشاريع، يبقى الدكتور" صبحي المحملجي" مدفوعا بجشعه الأعمى، إذ استمر في منافسة" مفضي الجدعان" الحكيم البسيط والمتواضع الذي يعالج الناس بدون مقابل، في حين يقف "المحملجي" الرجل الرأسمالي والانتهازي مقابلا" لمفضي" فيرفض معالجة العامة وعمال المعسكر الضعفاء « لما كان الأمر مع" ابن عجيل" الذي باع أراضيه كلها غرب الإمارة لكي يدفع أجور المعالجة في عيادة الدكتور ثم في المستشفى»[44] كما وصلت لاإنسانيته إلى رفض العمال غير المؤمنين في أن يتلقوا علاجهم بالمستشفى، حيث ثمن العلاج باهض جدا[45]، الأمر الذي دفع بهؤلاء العمال وغيرهم إلى أن يقصدوا بيت مفضي الجدعان حكيم كل الناس.

وهكذا يزداد طموح أصحاب النفوذ، وتتواصل عملية تشييد القصور والأبنية الفخمة، وتكثر السيارات من أرفع طراز وصلت إليه صناعة السيارات الأمريكية، فتتحول الواحة البسيطة والطبيعة العذراء إلى كومة من الإسمنت والحديد تغيب فيها أدنى القيم الإنسانية، مع أن أمكنة جديدة وغريبة نشأت في أغلب المناطق حتى صيرتها لا علاقة لها بأصلها الأول، وكأنها جيء بها هكذا لتغرس على تلك الأرض الرملية.

وعليه فبناء القصور والمنازل المرفهة والمراكز التجارية والمعسكرات والشركات البترولية والمستشفيات، كل هذه الأماكن والفضاءات الجديدة التي لم يعرفها الأهالي من قبل، صارت حقيقية مجسدة، بدافع طموح الأغنياء وقناعة بعض الذهنيات المرتبطة بعبادة السلطة والمال.

ب-السوق/افتقاد الهوية الانتماء وإلغاء للذاكرة الجماعية:

كانت السوق في رواية" مدن الملح" ذات أهمية خاصة في علاقة الناس بعضهم ببعض، فقد كانت المركز الذي يتوجه إليه الناس المصلون وزوار المقبرة والقوافل في ذهابها وإيابها، وبهذا الموقع تمثل سوق " الحلال" لأهل موران ذاكرتها ومركز قوتها الشعبية، وجزءا من هويتها البدوية الأصلية، كما يمثل مركزا تجاريا يقصده المصلون وفضاء مميزا ببعديه التاريخي والاجتماعي والديني[46]، حيث يندر أن يمر الناس منه ولا يتذكرون أهاليهم وأجدادهم الموتى في المقبرة، لحظات شعورية مؤثرة جدا، تذكر بأن التواصل بين الذين فوق الأرض وهؤلاء الذين تحتها لا يزال مستمرا، لأن الفروع لا تنفصل عن جذورها.

وتمثل السوق كذلك ذاكرة جماعية للأطفال الذين لم يعرفوا بعد بيوتهم وحيهم مكانا آخر غير"سوق الحلال" عاشوا لحظات حميمية وهم يختارون أضحيات العيد، وهم يقومون بانتقاء ملابس جديدة، أما الكبار فيتذكرون أولى المشاعر وهم يتفقون على المرأة التي ستكون زوجة أحد الأبناء، في السوق كل يوم يختلف عن اليوم الذي يليه، سبقه الناس ينقلون أخبارا جديدة باستمرار[47] حتى أسرار القصور ومجالس أمرائها تخرج إلى العامة فتنشر بين عامة الناس وسط السوق[48] لقد كان السوق يملأ حياة الناس البسطاء بهجة وألفة تفيض إنسانية ذلك أن السوق« فبالإضافة إلى كونه فضاء لعرض السلع ومختلف البضائع والمنتجات للبيع والشراء أو المقايضة، فإنها فضاء لقاء أصحاب المهن والحرف المختلفة كل حسب طبقته، نجدها بكثرة في القرى والأرياف والمناطق الجبلية وكذا الصحراوية، وهي بمثابة منظمة تؤدي وظائف عديدة، تجارية وإعلامية وتواصلية، الناس فيها يساوعون، يتصايحون ويعقدون الصفقات ويتواعدون...يتميز بالزحام والاكتظاظ اللذين يعبران عن التلاحم بين الناس داخل السوق»[49].

هذه هي بعض من مزايا السوق وخصوصياتها في علاقتها بالناس الذين تعودوا عليها بشكلها وطبيعتها المتأصلة في أعماق النفس البدوية، فكيف يكون حال الناس إذا اختفت السوق من حياتهم؟، فلماذا يختفي "سوق الحلال" أو ينتقل إلى منطقة أخرى بشكل مغاير؟، ولاسيما أنه كان بالنسبة لبعض الأفراد عصب حياتهم مثل" شمران العتيبي" قاضي حران الذي كان يفصل في القضايا الصعبة والمواقف المعقدة في المجالات الحياتية الخاصة والعامة، وكذلك حال " عبيد الطويل" الذي سيموت وينتهي زمنه إذا اختفت السوق، وقد حدث ما كان يخاف منه كان ذلك يوم الجمعة عندما وقف مناديا أمام المسجد ليعلن بأن "سوق الحلال" ستنتقل إلى العوالي والحاضر يبلغ الغائب »[50] ، والغائب سيعرف أن يومه اللاحق لن يكون كيومه السابق، لأن الزمن الجديد بدأ يؤثر في حياة الناس بعد انتشار خبر انتقال السوق بثوب جديد إلى منطقة " العوالي" لأن ملامح الصدمة بدأت تتضح يوما بعد يوم، ولاسيما إثر اللقاء المفاجئ الذي وقع بين أعماق الصحراء والذين جاؤوا عن طريق البحر«... انتاب الناس قلق شديد، بعد تزايد مراكب الأمريكان...فقد كانوا يراقبون تلك الصناديق الضخمة وهي تنتقل من الماء إلى اليابسة...وتواصل وصول البواخر وازدادت تساؤلات أهالي هذا المكان النائي...» [51].

هذا ما أدى بالناس إلى العزلة والحصار لأنهم باعوا جمالهم " لابن الراشد" فتاهوا وصاروا يجهلون مصيرهم ذلك أن مجيء الغرباء/الأمريكان زعزع استقرارهم وقسم أرضهم إلى قسمين "حران العرب" و"حران الأمريكان" وخصوصا بعد وصول السفينة الكبيرة التي بهرت الجميع[52]، فأدرك الأهالي أن لاشيء بقي يربطهم بماضيهم الأصيل، لأن المكان تغير، وتلاحم الناس وألفة السوق بدأت تختفي بينهم، كل هذا سبب صدور قرار تحويل السوق إلى منطقة أخرى لأن السلطة فكرت في شراء الأراضي المحيطة بسوق الحلال أو القريبة منها لبناء مقرات وزارية ومشاريع أخرى متعلقة بالسفارات.

كانت " سوق الحلال" القلب النابض لوادي العيون/حران مما جعل كلا من "صالح الرشدان" و"عبيد الطويل" و"شمران القاضي" غير قادرين على نسيانها لأنها كانت جزءا منهم في الماضي، أما في الحاضر فقد عمت الفوضى السوق وازداد الناس جهلا ف"نجم" ابن "مران"(القاضي) « الذي كان يبيع الكتب فيتساءل من يقرأها، ولماذا؟ وهل

هناك بشر يحتاجون إلى مزيد من التعلم مادامت الحياة حولهم تضج وتغلي وتتغير كل يوم...سوق الحلال عالم، والرجال هناك تتعلم، أما من يوم ما طار السوق فكل شيء صار مثل الطخي المذرور في الريح»[53].

لقد أحدثت صدمة انتقال السوق إلى مكان آخر شرخا عميقا بين ماضي الأهالي وحاضرهم، كل شيء ضاع: الخيل والإبل والأرض والسوق، فجن الناس، لأن جزءا مهما من ذاكرة " موران" اختفى إلى الأبد، صارت حران/موران تعج بالسيارات، مليئة بالاسمنت والحديد لا تعرف عن وادي العيون شيئا.

ج-من بساطة الخيمة وأصالتها إلى المدن الكارثة:

يتجلى هذا المظهر كذلك بشكل واضح جدا، في نص "مدن الملح"، وخاصة في الأجزاء الثلاثة الأخيرة[54] حيث النقلة السريعة والمفاجئة من حياة الخيمة إلى حياة القصور العالية، فقد جرت الأمور بصدفة غريبة، لم تخضع لتخطيط مسبق يحميها في المستقبل، فجأة صار ابن الصحراء غريبا عن المكان الذي نشأ فيه، كما نسي علامات ماضية «تغيرت موران بشكل لم يكن منتظرا ولا متوقعا»[55]، وربما هذا ما يفسر توظيف المؤلف "عبد الرحمن منيف" لكلمة " فجأة" بطريقة مكثفة جدا[56] فكل شيء حدث بسرعة فاقت كل قياس، مما جعل وادي العيون يكبر ويتوسع أكثر ليحوي الجديد/الآتي، فيفاجئ الناس لأنهم لم يعوا كيفية مجيئه والهدف منه.

هذا ما جعل الفرد يقف صامتا أمام المباني العالية والمكيفة، والسيارات المكشوفة، واحتفالات الكوكتيل المبالغ في تنظيمها من حين لآخر مقابل الأحياء الفقيرة والناس الذين يقتلهم المرض والجوع والانتظار[57] .

لقد بلغ المكان مستوى كبيرا من التدني الإنساني بسبب تهور السلطة الحاكمة ورغبتها الجامحة في الاستيلاء المطلق على الملك بدءا "بخربيط" إلى "فنر" الأمير/السلطان المتشبع بالثقافة الأمريكية الذي اتبع سياسة القوة والعنف والتخويف، وانتشرت السجون وازداد عدد المخبرين، ليتساقط كثير من المتمردين تباعا رميا بالرصاص أو بقطع الرؤوس « يهوي سيف الجلاد على الرؤوس واحدا بعد آخر، تتساقط الرؤوس وترتفع نافورة الدماء»[58].

هذه هي المظاهر المميزة لمدينة" فنر" مدينة تحولت إلى درجة التشوه لتنبئ بالكارثة على المدى القريب مدينة هي إلى الجحيم أقرب، قصور مؤنثة على النمط الأمريكي أو الآسيوي، أبراج زجاجية وحديدية بنيت بأشكال لافتة للانتباه، لا تناسب طبيعة الأرض ومناخها ومزاج الأهالي وعقليتهم البدوية الأصلية فما مصير هؤلاء؟ وكيف تكون حالتهم بعد أن ينفذ احتياط النفط؟ «...إذا قلت الأموال بسب انتهاء النفط، واعتادت الكهرباء على الانقطاع، تتحول هذه الأبراج والمباني الساطعة إلى أفران محرقة، ...لأن درجة الحرارة مرتفعة في الظل، أما في الشمس فقد تصل إلى خمسين درجة... »[59].

إن الانتقال من حياة الخيمة الطبيعية المتأصلة في شخصية ابن الصحراء، إلى حياة المباني الزجاجية الساطعة والمرفهة، خلقت فعلا مدينة كارثية، ذلك أنه إذا صعب الاختيار سيموت المغلوبون على أمرهم جوعا بسبب الفقر الذي ينتشر في كل مكان، وما ينتج عنه من موت بطيء وفي وضعية مأساوية كهذه التي آل إليها وادي العيون وناسه، ارتفعت نسبة المتمردين كما توسعت دائرة العصيان والفتن بين الوسط الشبابي، فقل عددهم، وارتفع عدد المسنين، ومات الكثير بسبب الفقر المدفع والأمراض المزمنة، لتتحول " موران" إلى مقبرة حقيقية بشهادة كل من يأتي لزيارتها من خارج السلطنة، « وهكذا بدت موران بنظر الكثيرين أشبه ما تكون بالمقبرة، فليس في هذه الأرض ذرة من فرح، خاصة حين انقطعت الأمطار وشحبت الأرض... وأصبح الناس لا يرون فيها سوى القبور...» [60].

صارت موران إذا تعج بالموتى فوق الأرض وتحتها، فهل ثمة كارثة أكبر من هذه؟.

إن سرعة التغير شوهت المكان وألغت الذاكرة الجماعية للأهالي وجعلتهم ينسون هويتهم وأصالة انتمائهم التي ارتبطت بوجود الخيمة.

***المكان الحلم والبناء:**

أ-رحلة البيت الأندلسي من غرناطة إلى الجزائر المحروسة:

بعد أن فرقت الحرب بين " أحمد بن خليل غاليليو ألروخو" وحبيبته " سلطانة بلاثيوس" على أرض غرناطة حيث كان قد قطع معها عهدا بأن يبني لها بيتا يكون نسخة للبيت الذي أعجبت به وأحبته كثيرا في غرناطة، إذ بعد أن يطرد مع آلاف الموريسكيين باتجاه ميناء وهران ثم الجزائر(المحروسة)، وبعد أن يتخطى كل الصعاب والمآزق، فيشتري أرضا متنوعة الأشجار، يبقى الحلم/الوعد الحلم الذي هو بمثابة المهر الذي سيقدمه لسلطانة، لأنه متأكد من أنها ستأتي يوما، وتحت سقفه يجتمعان، خاصة بعد أن صار سيد نفسه على أرض المحروسة الطيبة، قال غاليليو: « ... وأتخيل البيت الذي سأنشئه في الداخل لسلطانة التي لم تساورني لحظة شك واحدة، في أنها ستأتي ...نصحني ميمون البلنسي بمهندس مالطي... في فصل الربيع أخذني وجرني إلى الأرض التي سيبنى عليها البيت الذي حلمت به مع سلطانة... »[61].

وفعلا يتحقق حلم العاشقين وتحضر سلطانة إلى الجزائر لتجد وعد غاليليو مجسدا، على قصبة المحروسة، وهكذا من الحلم يتولد المكان ليكون مطابقا لأصله الأندلسي، فيسمى" بالبيت الأندلسي".

ب-المكان وإعادة بعث التاريخ:

لقد ولع أحد المستعمرين الفرنسيين بحب كل ما هو أصيل في الجزائر التي عين فيها منذ ألف وثمان مئة وواحد وثمانون حاكما عليها وكان حقوقيا، كان شديد الاهتمام بالتاريخ الأندلسي وربما هي ظاهرة يندر أن نجدها عند الطرف المستعمر، فقد جاء ليأخذ وليس ليعطي، " فالمارشيال جونار" كان شاذا في هذا المسعى حيث انشغل بكل ما هو أصيل وقديم، إذ بفضل عنايته وجهوده تلك رجع البيت الأندلسي إلى أصله الأول بعد ما لحقه من تشريه إثر ما مر عليه من نكبات[62].

لم يكتف "جونار" بإعادة القيمة التاريخية والحضارية للبيت الأندلسي، بل وفي الفترة التي حكم فيها الجزائر خاصة بين ألف وتسع مئة وثلاثة وألف وتسع مئة وإحدى عشر حيث لاحظ هذا الحاكم، تدني المستوى الثقافي والعلمي والحضاري في وسط الجزائريين منذ الغزو الفرنسي للجزائر وأثر ذلك على نفسية الفرد الجزائري، لذلك فكر في أن يقترب من المثقفين التقليديين وتشجيعهم على الإبداع الفكري وقد تجسد اهتمامه هذا على أرضية الواقع:« إذ خطط لبناء البريد المركزي على الطراز الموريسكي الذي كان مولعا به، وبنى أيضا المدرسة الثعالبية بجوار مقام سيدي عبد الرحمن الثعالبي سنة 1904...وفق النمط الهندسي الأندلسي كذلك.... [63].

لقد خالف " الحاكم جونار" السلوك الاستعماري الذي كان يقوم على التنصير والتقتيل والتهجير والتشويه لقيم الفرد الجزائري الأصلية، فبنى ولم يهدم وشجع المبدعين والمثقفين والفنانين من موسيقيين ورسامين، وكذلك كان بحاجة إلى بناء وتشييد دار مناسبة لكل مجال.

نحن هنا في مرحلة احتلال الجزائر وفرنسي مستعمر ينشر الثقافة ويحافظ على أصالة التاريخ والانتماء بواسطة ترميم ما خرب وبناء أماكن جديدة لأنه كان يؤمن بأن الثقافة هي أساس الحضارة وهي لا تحصن ولا تستمر بالأفكار فقط بل بالعمران والآثار المادية المجسدة لها.

***المكان بين رغبة التحويل وحلم الإلغاء:**

أ-تحويل المكان إلى خراب:

هنا نلاحظ العالم بالمقلوب، فيما سبق رأينا كيف كان غريب الديار والوطن شديد الحفاظ على التراث الأندلسي والموريسكي الذي جيء به إلى أرض المحروسة الجزائر، وكما فعل ذلك الحاكم الفرنسي " جونار" بينما على عكسه تماما، يلاحظ على المأساة التي حدثت " للبيت الأندلسي" الأصيل، فقد تحول إلى خراب شكلا ومضمونا، خارجه وداخله وذلك في القرن التي سكنته عائلة " مدام لوبيز" أو " باربي السمينة" يقول السارد: « جاء زمن با ربي سمينة...ليصبح البيت الأندلسي تحت إمرتها...ذات فجر بارد، عندما قمت على ضجيج الآلات الصغيرة وهي تحفر وتعيد تبليط البيت...نزعوا بعض أشجار البيت في الحديقة...حتى البيانو رمي في الحديقة التي سرق جزء كبير من أشجارها وترابها وحول إلى اسمنت بارد..زال نهائيا لون البيت الأساسي المائل إلى الزرقة الخفيفة، وحلت محله الألوان الصارخة...كل شيء من القرون الماضية صار في الزبالة البيانو واللوحات المميزة جدا من نهاية القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين من عهد حكم جونار...»[64].

هذه بعض المظاهر التي صار عليها " البيت الأندلسي" تحت وطأة " مدام لوبيز" بعبثيتها وجهلها لكل ما هو أصيل آت من الماضي والمرتبط بجذور من تركه كأثر شاهد عليه، فإن ذهب صاحبه بقي الأثر كدليل على أنه كان هنا في يوم من الأيام الماضية، والتي بطبيعة الحال لم ترد أن تعترف بها أو تلتفت إليها " مدام لويز" لذلك تحول البيت الأندلسي وحديقته الغناء إلى خراب مؤكد، لم يشعر بمأساته إلا " العم مراد باسطا" خادمه الوفي، والذي حافظ على وصية الجد الأول " غاليليو ألروخو" .

ب-البيت الأندلسي بين أصالة التاريخ وعبث الأغنياء:

تتجلى هذه المفارقة بشكل واضح في الاقتراح الذي تقدمت به وزارة الثقافة بعد الاستقلال، حيث تجعل منه دارا للموسيقى بعد أن صار الناس متعطشين للفن الراقي الجميل، بسبب انتشار أماكن الاستهلاك السريع لباسا ومأكلا.

ولكن اقتراح "وزارة الثقافة" لم يلق رضا الجميع، إذ بعد فترة وجيزة تغير كل شيء في البيت الأندلسي، بعد أن يأتي مالكون جدد ويحولوه إلى فضاء للرقص والغناء فسموه" ملهى الأندلس" وكان يتردد عليه من سموهم سكان العاصمة " البقارين" هم أغنياء إلى النخاع يعومون في الأموال فيصرفونها بلا حساب، حتى وإن تجاوزوا حدود النظام العام وأصالة المكان الذي يتواجدون فيه، وحرمته الحضارية والتاريخية، فيجعلون من البيت الأندلسي مكانا للعبث والفساد وما يتبع ذلك.

وختاما، نقول، إن المبدع الروائي يوظف فضاءات مختلفة ومتعددة، ومفتوحة ومغلقة، خارجية وداخلية فيركز على هذه، ويمر مر السحاب على تلك، لا لسبب إلا لأن الأمر مرتبط بقصدية معينة، فهو في كل مرة يضمن هذا التوظيف معاني إيديولوجية محددة، تكون مرة عاملا في إنتاج هذا المكان ومرة أخرى يكون المكان هو المنتج لتلك الايدولوجيا، كما رأينا ذلك في الأمثلة التي توقفنا عندها في نصي هذه المدونة.

الهوامش:

1 - H. Mitterrand : Le discours du roman, PUF, France, 1980, p192.

2- ينظر: ميشال بثور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، ط 1، 1971، ص ص 112، 115، 122-131.

3- ينظر: مراد عبد الرحمن مبروك، جيوبوليتكا النص الأدبي-تضاريس الفضاء الروائي نموذجا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2002، ص 124.

* ينظر مثلا: لسان العرب لابن منظور، } 15، ص 101.

وكذلك أبو البقاء العكبري، التبيان في شرح الديوان، ج3، ص 367.

4- ينظر: محمد بازى، العنوان في الثقافة العربية، "التشكيل ومسالك التأويل"، دار العربية للعلوم ناشرون/بيروت، الاختلاف/الجزائر، الآمان/الرباط، ط 1، 2012، ص 11.

5 - Voir : Gérard Genette, Seuils, Seuil, Paris, 1987, p 65.

6 -voir/gerard genette p 24

7- ينظر: مراد عبد الرحمن مبروك : جيوبوليتكا النص الأدبي، ص 103.

** ينظر: حميد لحمداني: بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء،ط1، 1991، ص ص 57-58.

8- ينظر: حميد الحمداني، بنية النص السرد، ص 58.

9- سمر روحي فيصل، الرواية العربية البناء والرؤيا، إتحاد كتاب الغرب، دمشق، 2003، ص 71.

10- ينظر:المرجع نفسه، ص 72.

11- ينظر: حسن نجمي، شعرية الفضاء، المركز الثقافي، الدار البيضاء/المغرب، ط 1، 2000، ص ص 54-60.

12- حميد لحمداني، المرجع السابق، ص ص 62-63.

13- ينظر: شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرّواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1994، ص 334.

14- حسن بجراوى، بنية الشكل الرّوائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط1، 1990، ص ص35-90.

15- ينظر: محمود البطل، سيزا قاسم، يوري لوتمان وآخرين، جماليات المكان عيون المقالات، الدار البيضاء، ط2، 1988، ص ص61-62.

16- ياسين النصير، الرواية المكان، دار نينوى، دمشق، ط 2، د ت، ص 70.

17- عبد الرحمن منيف، حماسية مدن الملح، التيه، الجزء الأوّل، ص 107.

18- عبد الرحمن منيف، المصدر السابق، التيه، الجزء الأول، ص 109.

19- عبد الرحمن منيف، المصدر نفسه، ص 140.

20- عبد الرحمن منيف، المصدر السابق، ص 106.

21- عبد الرحمن منيف، المصدر نفسه، ص 158.

22-المصدر السابق، ص 514.

23-انظر/مدن الملح، الأخدود، الجزء الثاني، ص 325.

24-المصدر نفسه، ص ص 300-302.

25-انظر/الدراسات الاجتماعية عن المرأة في العالم العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، اليونسكو، ط1، 1984، ص 40.

26-انظر/ مدن الملح، تقاسيم الليل والنهار، الجزء الثالث،ص 26.

27-انظر/ مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط2، 1980، ص 244.

28-مدن الملح: الأخدود، ص ص 352-354.
29-المصدر السابق، ص 355.
30-انظر/المصدر نفسه، ص ص 356-357.
31- واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص ص 67-70.
32- انظر، المصدر نفسه، ص 70-71.
33- انظر/ المصدر نفسه، ص ص 72-73.
34-المصدر السابق، ص ص 117-429.
35- البيت الأندلسي، ص 138.
36- المصدر السابق، ص 140.
37-البيت الأندلسي، ص 31.
38- مدن الملح، التيه، الجزء الأول، ص 196.
39- انظر/ مدن الملح، التيه، الجزء الأول، ص 485.
40- انظر المصدر نفسه، ص 487.
41- انظر المصدر نفسه، الأخدود، الجزء الثاني، ص 234.
42- انظر/نفسه، التيه، الجزء الأول، ص 494، وكذلك الأخدود، الجزء الثاني، ص ص 241-242.
43- انظر/ المصدر السابق، الأخدود، الجزء الثاني ص 573.
44- المصدر نفسه، التيه، الجزء الأول، ص 524.
45- المصدر نفسه، ص 425.
46- المصدر السابق الأخدود، الجزء الثاني، ص ص 352-354.
47- انظر المصدر نفسه، ص 355.
48- انظر/المصدر نفسه، بادية الظلمات، ص ص 128-129 وأيضا ص 334.
49- محمد جبريل: مصر المكان، المجلس الأعلى للثقافة (ج،م،ع) 2000، ص ص 113-117.
50- انظر/ مدن الملح، الأخدود، الجزء الثاني، ص 365.
51- المصدر نفسه، التيه، الجزء الأول، ص ص 180-184.
52- انظر/ المصدر نفسه، التيه، الجزء الأول، ص 204.
53- المصدر السابق، الأخدود، الجزء الثاني، ص 377.
54- وهي كالآتي: تقاسم الليل والنهار، المنبت وبادية الظلمات،ط2 1989.
55- المصدر نفسه، بادية الظلمات، الجزء الخامس، ص 500.
56- مثلا في الجزء الثالث: تقاسيم الليل والنهار نجد الصفحات الآتيــة 9-10-38-44-82-100-123-164..وفــي باديــة الظلمات نجد،52،505.
57- انظر/ المصدر السابق بادية الظلمات، ص ص 400-401.
58- المصدر نفسه، بادية الظلمات الجزء الخامس، ص 408.
59- عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفى، دار الذكر الجديد، بيروت، ط1، 1992، ص 212.
60- مدن الملح، بادية الظلمات، ص 569.
61- البيت الأندلسي، ص ص 160- 161.
62- انظر البيت الأندلسي،ص 312.
63- المصدر نفسه، ص 313.
64- المصدر السابق، ص ص 350-352.